

مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية
ISSN : 2352-9849 ISBN : 2013-4803
Volume 17 N 02 December 2024

الاستعمار: قراءة نقدية لآراء توكفيل واستعمار الجزائر

Colonialism; a critical reading of Toukville's views and the colonization of Algeria.

أ.د جمال معتوق [1]

جامعة البليدة 2 – لونيسي علي، الجزائر

تاريخ الإرسال: ../../.... تاريخ التقييم: ../../....

تاريخ القبول: ../../....

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى تقديم قراءة نقدية لمواقف المفكر والسياسي الفرنسي ألكسي دو توكفيل تجاه الاستعمار الفرنسي في الجزائر، من خلال تحليل كتاباته وسياقها السوسيولوجي والسياسي. ينطلق البحث من تحديد مفاهيم أساسية مثل الكولونيالية، التنشئة الاجتماعية، والنخبة، لإبراز الخلفيات الفكرية التي شكّلت وعي توكفيل ومواقفه. ويعتمد المقال منهجًا تحليليًا نقديًا يستند إلى نصوصه المتعلقة بالجزائر، خاصة رسائله وتقاريره بين 1837 و1847.

تُظهر الدراسة أن توكفيل، رغم شهرته كمنظّر للديمقراطية، كان من أبرز الداعمين للمشروع الاستعماري الفرنسي، حيث قدّم توصيات عملية لترسيخ الهيمنة، من بينها تبني الحرب الشاملة، تدمير البنى الاقتصادية والاجتماعية، وتشجيع سياسة الاستيطان والإقصاء. كما برّر استخدام العنف والمجازر

Abstract:

This article aims to provide a critical reading of the positions of the French thinker and politician Alexis de Tocqueville regarding French colonialism in Algeria, through an analysis of his writings within their sociological and political context. The study begins by defining key concepts such as colonialism, socialization, and elite, in order to highlight the intellectual background that shaped Tocqueville's views and attitudes. It adopts a critical analytical approach based on his texts related to Algeria, particularly his letters and reports between 1837 and 1847.

[1] أ.د جمال معتوق ، جامعة البليدة 2 – لونيسي علي ، matouk59@yahoo.fr

ضد السكان الأصليين، واعتبر التوسع الاستعماري ضرورة للحفاظ على مكانة فرنسا الدولية.

وتخلص الدراسة إلى وجود تناقض جوهري في فكر توكفيل بين دفاعه عن مبادئ الحرية والديمقراطية من جهة، ودعمه لسياسات استعمارية قمعية وعنصرية من جهة أخرى، مما يجعله أحد أبرز منظّري الإيديولوجيا الكولونيالية في القرن التاسع عشر.

الكلمات المفتاحية: الكولونيالية، النخبة، التنشئة، الديمقراطية

The study shows that Tocqueville, despite his reputation as a theorist of democracy, was one of the supporters of the French colonial project. He provided practical recommendations to establish domination, including advocating total war, the destruction of economic and social structures, and the promotion of settlement and exclusion policies. He also justified the use of violence and massacres against indigenous populations, considering colonial expansion a necessity to preserve France's international standing.

The study concludes that there is a fundamental contradiction in Tocqueville's thought between his defense of the principles of freedom and democracy on the one hand, and his support for repressive and racist colonial policies on the other, which positions him as one of the most prominent theorists of colonial ideology in the nineteenth century.

Keywords: Colonialism, Elite, Socialization**.**

1- مقدمة:

شكل موضوع الاستعمار عند النخبة العامة الفرنسية أحد أهم المواضيع والقضايا خلال القرن التاسع عشر ومازال مستمرا إلى يومنا هذا.

في هذا العمل سوف نركز على آراء ومواقف العالم والسياسي الكبير الفرنسي ألكسي سدي توكفيل Alexis de Tocqueville صاحب أشهر عمل حول "الديمقراطية" والذي نال بفضله الاعتراف والاحترام وأصبح يلقب بأب الديمقراطية.

لقد كان لهذا العالم والسياسي دور كبير في التوسع الاستعماري الفرنسي في الجزائر، بل يعتبره أغلبية النقاد النقاد والسوسيولوجيين السياسيين المنظر الأول للإيديولوجيا الاستعمارية الفرنسية.

لم يكن هذا العالم مجرد منظر (Théoricien) بل كان رجل ميدان حيث زار مستعمرة الجزائر عدة مرات للوقوف على طبيعة كل من السكان والبلد ومعرفة خاصة نظم هذه المستعمرة وخيراتها وكيفية كان الاحتلال يسيرها.

هذه الزيارات سمحت له بجمع العديد من المعلومات والشهادات الحية والوقوف خاصة على كيفية إدارة المستعمرة والتعامل مع الانتفاضات وبالخصوص تلك التي كان يقودها الأمير عبد القادر الجزائري.

هذا فقد خرج بالعديد من الآراء والمواقف حول الجزائر دونها في كتاباته المختلفة حول المستعمرة. وفي هذا العمل سنعمل على عرض البعض منها، حتى يعرف المثقف عامة والمختص في كل من التاريخ المعاصر وعلم الاجتماع السياسي حقيقة توكفيل وكيف ساهم كغيره من النخبة المثقفة والعالمة في استعمار الجزائر.

2- تحديد المفاهيم :

2-1 الكولونيالية:

يذكر قاموس أكسفورد أن الكولونيالية تشير إلى : «مستوطنة في بلد جديد...إلى مجموعة من الناس يستوطنون في موقع جديد ويشكلون جماعة تخضع لدولتهم الأم أو ترتبط بها والجماعة التي تشكلت على هذا النحو تتألف من مستوطنين محليين ومن نسلهم مادامت العلاقة مع الدولة الأم مستمرة" (أنيا لومبا، 2013، ص17)

الكولونيالية كايديولوجية توسعية ازدهرت خلال ظهور الرأسمالية والكشوفات الجغرافية والبحث على الأسواق الجديدة.كما أنها عرفت انتشارا واسعا خاصة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

عندما نتكلم عن الكولونيالية كظاهرة اجتماعية سياسية يجب أن نشير إلى جملة من المفاهيم المرتبطة بها: كالونيالي le colonialiste ، والمستوطن (الكولون) le colon ، غالبا مانجد أن المعاجم والقواميس المحددة لهذا المفهوم تتجنب التطرق إلى أصحاب البلد المستعمر، وهذا ما دفع على سبيل المثال الباحث وعالم الاجتماع ألبير ميمي Albert Mémmi إلى تناول المسألة في كتابه الشهير : Portrait du colonisé précédé d'un portrait du conisateur(1957)هذا ما دفع أنيا لومبا إلى القول:"يبدو أن هذا التعريف يتجنب تماما الإشارة للناس الآخرين غير المستوطنين، أي الناس الذين كانوا يعيشون أصلا في تلك الأماكن التي تم فيها إنشاء المستعمرات" (أنيا لومبا، 2013، ص17)

إذا يمكن القول بأن الفعل الكولونيالي هو فعل عدواني اعتدائي، يهدف إلى سلب الآخرين أراضيهم، مستغلا بذلك ظروف التقهقر والتخلف والانحطاط.

2-2 التنشئة الاجتماعية:

تعرف التنشئة الاجتماعية بأنها: «منظومة من العمليات التي يعتمدها المجتمع في نقل ثقافته بما تنطوي عليه هذه الثقافة من مفاهيم وقيم وعادات وتقاليد إلى أفراده، وهي بعبارة أخرى العمليات التي يتم فيها دمج الفرد في ثقافة المجتمع ودمج ثقافة المجتمع في أعماق الفرد. (علي أسعد وطفة ،علي جاسم الشهاب ، 2004، ص 235)

يعد إميل دوركايم أول من استخدم مفهوم التنشئة الاجتماعية (socialisation) بمعناه التربوي. (علي أسعد وطفة، 1992، ص39)

وفي هذا الصدد نجد "غي أفانزيني" يقول نقلا عن إميل دوركايم: "إن الانسان الذي تريد التربية أن تحققه فينا ليس هو الانسان على غرار ما أودعته الطبيعة بل الانسان على غرار ما يريده المجتمع".

(إي أفانزي، بدون تاريخ ، ص.330)

ولهذا نجد العالم إميل دوركايم يصرح قائلا: التربية (التنشئة الاجتماعية) هي التأثير الذي تمارسه الأجيال الراشدة في الأجيال التي لم ترشد بعد، وتكمن وظيفتها في إزاحة الجانب البيولوجي من نفسية الطفل لصالح نماذج من السلوك الاجتماعي المنظم" (Emile Durkheim ,1989)

وعليه التنشئة الاجتماعية هي عملية نفسية اجتماعية ثقافية تسعى من ورائها المجتمعات الإنسانية عن طريق نظمها الاجتماعية بناء الفرد الاجتماعي وذلك بتزؤيدخ مجمل القيم والمعايير والتراث المعبر عن خصوصيتها.

كم تهدف إلى نقله من حالة الكائن البيولوجي إلى الكائن الاجتماعي القادر على التأثير والتأثير بوسطه الاجتماعي الضيف ثم بالمجتمع ككل. وقد تم التركيز هنا على هذا للإشارة إلى طبيعة التنشئة الاجتماعية التي تلقاها المفكر والسياسي توكفيل وكيف أثرت هذه الأخيرة في أرائه والمواقف. ونشير إلى أن محتوى هذه التنشئة كان: الأرستقراطية والكاثوليكية.

3-2 النخبة :

تعدد استعمالات مفهوم النخبة في كل من العلوم الاجتماعية والسياسية، فقد استعملت العديد من المفاهيم للتعبير عن هذا المفهوم، منها: الصفوة والانتلجنسيا، وغيرها من التسميات الأخرى.

"استعملت كلمة النخبة في القرن السابع عشر، أول استعمال معروف لكلمة النخبة في اللغة الانجليزية وهو ذلك الوارد في قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية والذي يعود إلى سنة 1823، حيث كانت هذه الكلمة تطلق على فئات اجتماعية معينة، غير أن هذا المصطلح لم يستعمل استعمالا واسعا في الكتابات السياسية والاجتماعية في أوروبا حتى فترة متأخرة من القرن التاسع عشر، بل لم يصبح كذلك في بريطانيا وأمريكا حتى سنة 1830 عندما انتشر عبر نظريات النخبة وبشكل خاص عبر كتابات فيلفريدوباريتو" (توم بوتومور، 1988، ص5)

"النخبة جماعة من الأفراد يمتلكون خصائص مميزة تجعلهم أكثر قدرة على التميز في أدوار شديدة الأهمية في حياة مجتمعاتهم ولا سيما مجال توجيه المجتمع واتخاذ القرارات السيادية المهمة في مختلف مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية.

هذا وقد تعددت النخب، فهناك النخب السياسية، والنخب الدينية، والنخب الثقافية إلا أننا نعترض على هذا التصنيف الأكثر رواجا واستعمالا ونرى بأن أصناف النخب أكثر بكثير من هذا حيث لا يمكن في نظرنا خلط النخب العالمة الأكاديمية مع نخب الفنانين والشعراء والأدباء على سبيل المثال، كما أن هناك نخب عسكرية يجب أن تفصل عن النخب السياسية وغيرها من الأصناف الأخرى.

كما يمكن أن نجمع الفرد الواحد عدة مكانات، وصفات ويرتب ضمن أزيد من نخبة وهذا شأن ألكسي سدي توكفيل الذي ينتمي إلى كل من النخب المثقفة والنخب السياسية .

هذا وهناك تداخل ولبس كبير بين كل من مفهوم النخبة والمثقف.

كما اتخذت كل التعريفات لهذا المفهوم أبعاد أيديولوجية، فالمفهوم عند الماركسيين لا يدل على نفس الدلالة كما هو عند الرأسماليين.

في الطرح الماركسي نجد أن مفهوم النخبة تعرض للعديد من الانتقادات خاصة كونه حسب الفكر الماركسي كان محصورا في دور فئة بورجوازية مالكة لشرعية انتمائية. فقد كان كما يقول د.نديم البيطار لعقود طويلة تعريف النخبة نفسه موضوع ازدراء ورفض من قبل الفكر الماركسي الذي أثر عليه مصطلحات أخرى مثل: الطليعة في التراث اللينيني والمثقف العضوي عند "أنطونيو غرامشي"، أما الفضاء الفكري المتسع بين ما عرف بالأحزاب الاشتراكية الديمقراطية المسيحية، فقد استعمل كلمة المثقف للدلالة على النخب بالمعنى الواسع . (نديم بيطار، 2002، ص17)

فالنخبة أو المثقفين حسب نظرية الصفوة عبر العالم الإيطالي تعني الأفراد الذين يشكلون زبدة المجتمع من حيث رأس المال الثقافي والمعرفي والمكانة الاجتماعية التي يتمتعون بها في المجتمع.

3- من هو أليكسي دي توكفيل؟

ولد ألكسي سدي توكفيل بعد فترة قصيرة من قيام الثورة الفرنسية في أسرة أرستقراطية أصيلة من نورماندي، وعاش من 29 يوليو 1805 حتى 16 أبريل 1859، وكان مرتبطا بالنظام القديم في فرنسا بسبب أسرته، وبالنظام الجديد من خلال رؤيته للحرية، وقد شهد دخول الديموقراطية إلى فرنسا، وتنبأ بأنها ستنشر في النهاية في جميع أنحاء العالم. كان إسم أسرته في الأصل هو كلير، وقد حارب أحد أفراد تلك الأسرة مع وليام الفاتح في معركة هاستنجر في 1066، وبالتدرج حازت الأسرة على على إقطاعية توكفيل في نورماندي، وفي عام 1661 أصبح إسم الأسرة توكفيل، ولا يزال قصر الأسرة موجودا ويسكنه أحفاد شقيق ألكسي .

حافظ ألكسي على لقبه وعاش في قصره المحبوب إلى قلبه، ولكنه بالرغم من أنه قضى وقتا كبيرا وأنفق مالا كثيرا للمحافظة على القصر، لم يترك وريثا يرثه، من العجيب أنه لم يندم على ذلك، وقد قال ذات مرة إنه لم يكن لديه "أي رغبة حقيقية في المشاركة في يانصيب الأبوة الكبير"، إن تلك النظرة للأبوة تشي بمزيج من الازدراء الأرستقراطي للإنسان العادي وعدم الإكتراث الديموقراطي بمستقبل الأسرة، هذا إلى جانب الرصانة الفلسفية، لكن زواجه كان ببساطة أكثر ديموقراطية، فقد تزوج –كما اعترف هو بنفسه- من امرأة إنجليزية من طبقة اجتماعية ليست من طبقة النبلاء (أصر على الارتباط بها بالرغم من اعتراضات بعض أفراد أسرته). (هارفي سي مانسفيلد توكفيل :تر.مصطفى محمد فؤاد ، 2016، ص15)

نلاحظ هنا مدى أهمية كل من التنشئة الأسرية والانتماء الطبقي في الأفراد
حيث في النهاية سلوكيات وتصرفات الأفراد ما هي انعكاس وترجمة لمحتوى التنشئة التي تلقوها، وثقافة الطبقة التي ينحدرون منها، هذه الحقيقة تظهر جليا ليس فقط على مستوى تصرفات ومواقف توكفيل، بل عند كافة الناس مهما كانت انتماءات الاجتماعية والثقافية.
هذه التنشئة التي سيكون لها شأن كبير في حياة وأراء هذا المفكر، كما سنرى لاحقا.
أعماله حول الجزائر:

Première lettre sur l'Algérie (1837)

Deuxième lettre sur l'Algérie(1837)

Travail sur l'Algérie(1841)

Rapport sur l'Algérie(1847)

Notes sur le carreau et autres textes sur les religions

للإشارة فقد تم ترجمة كل من الرسالة الأولى والثانية عن الجزائر إى اللغة العربية وهما على النحو التالي:
- نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال والاستيطان، ترجمة وتقديم إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008.
- كتابات توكفيل عن الجزائر 1837-1847 (توكفيل بين الديموقراطية والاستبداد) ترجمة وتقديم الأستاذ علي زيكي، دار الجائزة، الجزائر، 2016.
هذا وتبقى العديد من الكتابات الأخرى التي لم تصلنا ونجهل عنها كل صغيرة وكبيرة، وذلك لوجود أطراف كثيرة تعمل على إخفاء هذه الكتابات، حتى لا ينكشف الوجه الحقيقي لهذا العالم والسياسي.
لقد مارست الجهات المسؤولة الفرنسية سياسة التعتيم عن عنصرية وبربرية ضباطها ومفكريها طيلة عهود طويلة ولولا وجود بعض الارادات الحسنة لما انكشفت شخصية هؤلاء المفكرين ورجال النخبة الذين يعتقد الكثيرون منا أنهم قامات في الإنسانية والديموقراطية وحقوق الإنسان.

لم ينخدع فقط المفكرين والباحثين وعامة الناس من الأوروبيين بهؤلاء العلماء والمنظرين، بل حتى العرب وخاصة المفكرين والأكاديميين الجزائريين الذين مازالوا يمدحون إلى يومنا هذا مثلا كارل ماركس Karl Marx وألكسي دي توكفيل Alexis de Tocqueville وغيرهم كثيرين.

لقد اشتهر العالم والسياسي ألكسي دي توكفيل خاصة بكتابية وهما:

- النظام القديم والثورة L'ancien Régime et la révolution والذي نشره في عام 1856، وتعرض فيه إلى النظام الملكي الذي كان سائدا في فرنسا وقيام الثورة التي كانت بمثابة أهم منعطف وحدث في تاريخ فرنسا، بل يذهب البعض إلى القول في تاريخ الإنسانية وهذا رغم العديد من التحفظات التي نسجلها بشأنها.

- الديمقراطية في أمريكا Dela démocratie en Amérique والذي نشره عام 1835، وهو أشهر كتبه وأعظمها حقا، وذلك لما له من جرأة ابستمية وعمق في الطرح والتحليل للظاهرة الديمقراطية من خلال التجربة الأمريكية، وكيف استطاع الأمريكيون أن يبدعوا في التأسيس لهذا النموذج السياسي النموذجي في نظره والأكثر فعالية في الحياة الاجتماعية والسياسية.

4- توكفيل والجزائر:

بعد التعريف السريع بالعالم والسياسي ألكسي سدي توكفيل، ننتقل الان لتقديم بعض الأفكار والتصورات التي كان يحملها حول مسألة القضية الجزائرية والاستعمار الفرنسي في هذا البلد.

لم يكن ألكسي سدي توكفيل الوحيد الذي اهتم بقضية الاستعمار والاستيطان في الجزائر، بل سبقه العديد من الأعمال والاقتراحات في هذا المجال، كما أنه تأثر بالبعض منها وبنى اقتراحاته وأعماله على النقد الموجه للبعض الاخر منها. (جمال معتوق، 2023، ص39)

هناك من كان ينادي بالاستعمار العسكري للجزائر، وطرف ثان كان ينادي بالاستعمار المدني، بينما طرف ثالث كان ينادي بالاستعمار العسكري والمدني في ان واحد . (جمال معتوق، 2023، ص39)

ومن بين هؤلاء المنظرين للاستعمار في الجزائر نجد خاصة:

- أدموند بليسيه دير ينوEdmund Pellissier de Reynaud
- شارل بيكوCharles picot
- القس لاندرمانL'abbé landermann

لقد كان الكل منخرطا ومتضامنا مع التوسع الفرنسي الاستعماري خارج الديار، والنخبة العالمة كما قلنا وعلى رأسها توكفيل، كانت في الطليعة.

طبيعة كتابات توكفيل عن الجزائر والتستر عليها:

كل كتابات توكفيل عن الجزائر هي بمثابة حلول ووصفات عملية قدمها هذا المفكر لأصحاب القرار في بلاده، حتى يتسنى لهم اتخاذ الإجراءات والتدابير اللازمة تجاه المستعمرة-الجزائر- وكيفية التعامل مع سكانها الأصليين . (جمال معتوق، 2023، ص39)

لم يكتف توكفيل في هذه الكتابات بتوجيه المسؤولين الفرنسيين، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث نجده يقدم المبررات عن المجازر وعن سياسة الأرض المحروقة.

لقد كان بالفعل المنظر رقم واحد للإيديولوجيا الكولونيالية في الجزائر وأحد كبار مهندسي الاستعمار في الجزائر. (جمال معتوق، 2023، ص39)

إن إعادة اكتشاف نصوص ألكسي سدي توكفيل المكرسة لاستعمار الجزائر في نهاية الثمانينات من القرن الماضي، قد غيب مسألة توافقها مع أعظم تأليفه الأمريكي Da la Démocratie en Amérique، وسمحت باختبار قيمة الليبرالية التوكفيلية بل الليبرالية بشكل عام. هذه النصوص التي تم تجاهلها منذ فترة طويلة باسم شهرة صاحبها –توكفيل- تلك الشهرة التي سطعت في السماء منذ 1990، والآن قد تم الكشف عنها بعد سبات طويل وعميق، وهي في أغلب الأحيان تظهر على أنها منارة لشهرة وسمعة الأسطورة الذهبية لمفكر الديمقراطية الحديثة .

(Olivier le cour Grand maison , 2001, p.12)

لولا جرأة وشجاعة وموضوعية بعض المفكرين والباحثين النزهاء، لا استمر التكتم على الأفكار العنصرية والاستعمارية لتوكفيل، لقد استطاع على سبيل المثال المفكر والناقد الاجتماعي والسياسي الكبير Olivier le cour grand maison، أن يكشف لنا حقيقة توكفيل وأفكاره المعادية لحقوق الشعوب المستضعفة ومنها الجزائر.

لقد تميزت كتابات توكفيل بالتناقض الصريح والتضارب في الآراء والأفكار ففي الوقت الذي نجده يتكلم عن مبادئ الثورة الفرنسية والمتمثلة في الحرية، والمساواة والأخوة، نجده يزكي ويناصر تقتيل الأبرياء في الجزائر وحرق الأراضي والمحاصيل الزراعية، بل نجده مدافعا شرسا على أساسيات التقتيل، الملاحقة والتهجير القهري للسكان الجزائريين والاستلاء على أراضيهم وممتلكاتهم باسم المهمة الحضارية la mission civilisatrice

ودائما حول جهل وتناقض توكفيل نجد الباحث ألكس هيريكور Alix Héricord في نقده يقول: "بين عامي 1837-1848 أظهر توكفيل اهتماما قويا بالشؤون الاستعمارية، وبشكل أكثر تحديدا القضية الفرنسية الكبرى التي أصبحت الجزائر تأخذها، وكذلك بالمقارنة مع الهند المستعمرة البريطانية. انبثق من ورائها الاهتمام سلسلة كاملة من النصوص –الكتابات- التي تتعلق مباشرة

بالممارسة السياسية لتوكفيل -على وجه الخصوص كعضو في البرلمان المتخصص في المسائل الاستعمارية من عام 1839- أو متشابكة مع طريقة عمله، والتي في كل الحالات ليست لها صفة واحدة يمكن جمعها تحتها في كتاب واحد".

(Alix Héricord, en ligne le 11 janvier 2010 consulté 10/02/2024)

لا تزال تصدر شروحات لكتابات ألكسي دوتوكفيل حول الجزائر، يطرح التقديس الذي يحظى به هذا المنظر الليبرالي، وهو مؤيد شرس للاستعمار وأحد رواد سياسة الرعب، مفارقة بيئة بين انتسابه من ناحية إلى إيديولوجيا عقيدتها القاعدية الفردانية والحرية، وتنبيه من ناحية ثانية فكرة تراتبية الأعراف والتفوق الحضاري للغرب التي تبرر المشروع الاستعماري، وفي الواقع، وعلى غرار توكفيل، تبنى الكثير من منظري الليبيرالية (التيار السائد خلال القرن التاسع عشر) العنصرية ومعاملة السكان المحليين على نحو استثنائي وممارسة الإرهاب على نطاق واسع . (لينا كنوش، تاريخ التصفح 2020/09/06)

إلا أننا رغم موافقتنا لصاحبة هذا المقال "لينا كنوش" نقول بأن التيار اليساري من الإشتراكيين، الماركسيين، والسانسيونيين وأتباع الفوربية....إلخ، كانوا ولا يزالون أخطر التيارات المعادية لحقوق الشعوب المستضعفة والمقهورة، وأنهم دائما وأبدا يمارسون سياسة النفاق.

وقد وقفنا على هذه الثقافة المزدوجة والنفاق لدى من سميوا بالإنسانيين Les hummanistes من أمثال الكاتب والشاعر الكبير الفرنسي فكتور هيجو الذي كان من كبار المساندين لاستعمار الجزائر، بالرغم من أعماله المناهضة للاستغلال والاستبداد والمنادية بحقوق الإنسانية مهما كان عرقه أو دينه.

نفس الملاحظة سجلناها عند مفكرين كبار من أمثال أرثور قوبينو، أرنست رينان، الأب أنفونتان رائد السان سيمونية وغيرهم من المفكرين المشهورين.

5- الحرب الشاملة على الجزائر:

يعد توكفيل من أنصار هذا الطرح، حيث كان يؤيد الحرب الشاملة على الجزائر، عكس الذين كانوا ينادون بحرب محدود، دون التوغل في كافة أنحاء الجزائر.

يقول غرانميزون:"توكفيل إذا كان في الوقت نفسه ليبرالي ومنظر مؤيد للاستعمار لأسباب من بينها قدرة وطنه على المنافسة. ونذكر في الأخير بأنه ساند في سبيل ذلك مناهج حربية مخصوصة، بما أنه فضل تدمير الأراضي التي يسيطر عليها الأمير عبد القادر وتخريب المدن والحصاد وصوامع

المواد الفلاحية، كذلك كان من بين توصياته التي صاغها في أعماله المختلفة حول الجزائر أسر رجال دون أسلحة، نساء وأطفال. (لينا كنوش، تاريخ التصفح 2020/09/06)

لم يكن توكفيل مجرد منظر وعالم سياسي، بل كان قطبا من أقطاب الإمبريالية الرأسمالية الصاعدة في تلك الفترة، والتي كانت تبحث على التوسع على حساب الشعوب المستضعفة. إنه كان يشجع بكل ما أوتي من قوة فكر ومكانة اجتماعية وسياسية، بلد فرنسا أن تحذو حذوى إنجلترا العظمى بل تفوقها في استعمار إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية.

لقد كان من أنصار الحرب الشاملة في الجزائر وهذا حتى تتمكن فرنسا من فرض وجودها وهيمنتها الكاملة والكاملة والمطلقة. إن قتل الأطفال والنساء والشيوخ والحيوانات وتدمير المحاصيل والنباتات، كلها ضرورية في نظره لضمان هيمنة فرنسا المطلقة على الجزائر.ولهذا نجده يدافع في البرلمان وفي أعماله عن المجازر والمحارق التي ارتكبها ضباط فرنسا في الجزائر ويطلب المزيد من المال والدعم لجيوش فرنسا في الجزائر.

بالنظر إلى هذه النصوص-رسائله حول الجزائر- يحق لنا اعتباره أحد مبتكري ما يجب تسميته "الحرب الشاملة"، في مقابل الحرب التي تسمى "مسطرة" التي خاضتها الدول، الأمم في القارة العجوز.

علاوة على ذلك لا يجب أن ننسى أن توكفيل ناصر أيضا نوعا من حالة الاستثناء الدائمة في حق " السكان الأصليين" (معنى تحفيزي لمصطلح الأهالي) للجزائر بغرض تثبيت النظام الاستعماري وإدامته، وهو أمر ضروري لتحويل ذلك المجال إلى مستعمرة استيطانية.

معاملة هؤلاء "السكان الأصليين" على قدم المساواة؟ لم يكن تحولهم إلى مواطنيين أمرا مطروحا، بل كانوا "رعايا رفنسيين" وظلوا كذلك حتى عام 1954 في إفريقيا وغيرها من الأماكن، تحولت ليبيرالية توكفيل إلى سياسة سلطوية وحتى دكتاتورية للسيطرة على "السكان الأصليين" الذين إعتبروا أدنى مرتبة ولكنهم خطرون".

لم يكن الاستعمار الفرنسي للجزائر كغيره من أشكال الاستعمار الأوروبي، بل كان استعمارا خاصا، طبيعته تتميز بتدمير البنى الثقافية والحضارية للجزائر وسلخها عن تراثها وعمقها الحضاري، لقد سعت فرنسا من خلال توسعها في الجزائر على تفريغ وتهجير وقتل السكان الأصليين واستبدالهم بمعمرين من كافة أنحاء أوروبا، إنه استدمار كما سماه المرحوم نايت بلقاسم، ولهذا لا يمكن التشبيه بينه وبين باقي أوجه الاستعمار الأوروبية نظرا لفلسفته الرامية إلى تطهير العرقي والديني والعنصري وتنصيب سلطان الرجل الأبيض والديانة الكاثوليكية المتزمتة.

يواصل كلامه غراميزون في هذه المقابلة فيقول:"كثيرا ما نظن أن رجال تلك الحقبة رأوا تناقضا بين مواقفهم الديمقراطية أو الجمهورية وبين الاستعمار، تلك نظرة ترتبط بوهم ذي أثر رجعي يتمثل بإلصاق تصورات كونية بأولئك الرجال، فيما كان أغلبهم يرفضونها وقد كانت تلك هي الحال في ظل الجمهورية الثالثة، يمكن التذكير مثلا "بأن" جول فيري Jules Ferry هو في ذات الوقت الجمهوري الذائع الصيت واستعماري مقتنع تمام الاقتناع، على غرار كثير، وفقا للعقيدة الإمبريالية- الجمهورية في ذلك الوقت، من معاصريه بأن الجنس البشري مقسم إلى أعراف متفوقة وأخرى متدنية، يجب على الأعراف المتفوقة استعمار الأعراف المتدنية لاقتلاعها من بدايتها (Sou état primitif)، وقد تبنى تلك العقيدة أيضا عدد من اليساريين الاشتراكيين في العشرينات مثل "ليون بلوم." لقد كان يوجد علم اجتماع مذهل حول ذلك، تكرس شيئا فشيئا. (لينا كنوش، تاريخ التصفح 2020/09/06)

6- توكفيل وضرورة التوسع الاستعماري الفرنسي :

تعد مسألة استعمار الجزائر لفرنسا كما يراه العالم توكفيل مسألة شرف وهيبة وحضور على الساحة الأوروبية، خاصة أمام الحضور الفوري لبريطانيا العظمى . (معتوق جمال، 2023، ص99)

للإشارة أن الدول الأوروبية كانت متكالبة على كل من أراضي وخيرات إفريقيا وأسيا وأمريكا الجنوبية، وبالخصوص على الإمبراطورية الإسلامية العثمانية، وكان التفوق البريطاني واضحا، حيث كان هذا الأخير يسيطر على غالبية التركة العثمانية بالإضافة إلى العديد من الدول في القارات الإفريقية والأسيوية والأمريكية الجنوبية وهذا ما دفع إلى منافسة شركة بينه وبين باقي الدول الأوروبية وبالخصوص فرنسا، لقد تجندت كل القوى بمختلف أطيافها وانتماءاتها في فرنسا وراء النظام والمساندة للتوسع الاستعماري الفرنسي.

وفي هذا الموضوع يصرح توكفيل:"لا أعتقد أن بإمكان فرنسا في الظرف الراهن، أن تفكر جديا في رفع يدها عن الجزائر، فذلك يعني في نظر العالم تكريسا لانحطاطها المحتوم، ثم إن مثل هذه الغنيمة لو إفتكت من أيدينا بالقوة الحية لأمة منافسة لنا لكان أهون وأقل وقعا على النفوس والعقليات ".

ثم يضيف قائلا:"إن شعبنا وهو في ربيع شبابه وعز قوته التوسعية قد لا تسعفه حظوظ الحروب ويضطر إلى ترك المقاطعات والأقاليم التي استولى عليها وهو في غمرة اندفاعه العسكري، مثلما

وقع للإنجليز الذين اضطروا إلى التخلي سنة 1783 عن أجمل مستعمراتهم، ولكنهم تمكنوا بعد ذلك وفي أقل من 30 سنة فقط بسط نفوذهم على جميع بحار المعمورة، والاستيلاء على أحسن المواقع التجارية لجميع القارات". (علي زيكي، 2016، ص170)

بالنسبة للعالم الفرنسي توكفيل، يستحيل أن تتخلى أو تترك فرنسا مستعمراتها الجزائر، وذلك مهما كانت الظروف والصعاب، ترك الجزائر يعني بالنسبة لهذا العالم، أكبر مساس بسمعة وشرف ومكانة بلاده، حيث يرى بأنها-أي فرنسا-سوف تصبح أضحوكة الشعوب الأوروبية وخاصة غريمتها بريطانيا العظمى . كذلك يعتقد توكفيل بأن مجد وهيبة فرنسا، يكمنان في مستعمراتها وتوسيعها خارج الحدود، والجزائر هي أكبر غنيمة لا يمكن أن تفرط فيها. إن ما نسجله من خلال كلام توكفيل، توجهه الاستعماري التوسعي، والذي يعد بالنسبة له بمثابة عقيدة لا يمكن التفريط فيها. (معتوق جمال، 2023، ص100)

كذلك يفضل توكفيل أن تضيع فرنسا الجزائر عن طريق الحرب والهزيمة العسكرية، بدلا من أن تتخلى عنها، والذي يعد بالنسبة له انحطاط وتقهقر فرنسا أمام الشعوب الأوروبية الأخرى . (معتوق جمال، 2023، ص100)

وحول التوسع الاستعماري الفرنسي نجده يقول:"أما بالنسبة لفرنسا التي قد لا تضطر من جهتها إلى التراجع عن كرها إلا أمام الحواجز والصعوبات الطبيعية والخاصة بالبلد، أو تضطر إلى الفر بعد الكر أمام مقاومة البعض من العشائر الساكنة في تلك البيئة، نقول إن مثل هذا التراجع الطائش سيظهر فرنسا أمام العالم منتهية وهي تخر ساجدة لجدالية انحدارية خطيرة جدا بسبب انطفاء حماسها وضعف إيمانها بمكانتها في المنظومة العالمية ". (علي زيكي، 2016، ص170)

ثم يضيف قائلا:"إن أي شعب مدفوع إلى التخلي بمثل هذه السهولة عما إفتكه بالقوة، ويتراجع بمحض إرادته إلى سابق حدوده الأصلية، ينذر للملأ عن قرب نهايته التاريخية المشرقة ليدخل جهارا في مرحلة الانحطاط والانهيار". (علي زيكي، 2016، ص171)

يظهر من هذا الكلام مدى اندفاع وتحمس توكفيل ودفاعه عن التوسع الاستعماري لبلده في الجزائر، بل يرى بأن هذا العمل هو بمثابة مهمة مقدسة لا مفر منها وأن شرف وسمعة ومكانة فرنسا بين باقي الشعوب الأوروبية مرهونة بها.

7- سبل غزو الجزائر حسب توكفيل :

- أن يصبح سكان البلد المغزو تابعين للبلد الغازي، وبطبيعة الحال مع القيام بإدارة شؤونهم بصفة مباشرة أو غير مباشرة، كما هو الحال الإنجليز مع بلاد الهند.
- أن يستبعد السكان الأصليون وتعويضهم بسكان البلد الغازي كما درج عليه الأوروبيين في حملاتهم المختلفة وبصفة دائمة تقريبا، فالروم من جهتهم غالبا ما جمعوا بين المسلكين معا، فهم "يأسرون" الحكومة القائمة في البلد ثم يلجؤن بعد ذلك إلى إقامة تلك المستعمرات المزروعة والتي هي في واقع الأمر مجرد مجتمعات رومانية مصغرة منقولة إلى جهات أبعد في العالم، ولقد قيل الشيء الكثير عن الموضوع، ولا يزال العديد من الناس يدعون إلى وجوب اكتفاء الفرنسيين بالسيطرة على الجزائر دون الاستيطان فيها، وكنت من جهتي قد خلصت من دراسة هذه المسألة إلى رأي مخالف تماما ". (علي زيكي، 2016، ص176)

بعد دراسة للطرق المتبعة منذ القدم في عملية الغزو والاستعمار، نجده يقترح الاستعمار الشامل والذي يعتمد على كل من الجيوش وزرع الاستعمار الاستيطاني القائم على التجذر في الأرض من خلال المعمرين والقوة .

8- الهيمنة وسبل تحقيقها:

يشير في هذا الباب إلى حتمية القضاء على كل الحواجز والعوائق التي تقف في طريق فرنسا في الجزائر، وخاصة القضاء على الأمير عبد القادر وجيشه وذلك قبل أن تقوى شوكته.

وعليه فيقول :" أول شرط لتحقيق الهيمنة الفرنسية على هذه المستعمرة يكمن في:"لا مجال لتضييع الوقت إذا أردنا نسف قوة عبد القادر لا حاجة لي هنا إلى لفت الانتباه بأن الحكم كلما كان حديث النشأة، كلما تعددت فرص القضاء عليه وتهديمه من الأساس، وهذا الأمر واضح جليا للأعين "

ثم يضيف توكفيل، "فما أريد قوله: هو أن ما أقدم عليه عبد القادر قد يشكل خطرا داهما، خاصة إذا منحناه متسعا من الوقت لتدعيم أركان حكمه فإنه سيغدو في درجة من القوة يصعب معها القضاء عليه ".

ودائما حول خطورة الأمير عبد القادر وحتمية القضاء عليه لفرض هيمنة فرنسا فوق أرض الجزائر، يقول توكفيل:"إن حكومة عبد القادر قد غدت فعلا أكثر مركزية وخفة وحركية وقوة من حكومة الأتراك. فإمكانه أن يجند وبكل سهولة المزيد من المقاتلين وأن يرصد الأموال الوافرة وبكيفية أيسر". (علي زيكي، 2016، ص185)

إن توكفيل يلح على عدم مضيعة الوقت وذلك قبل أن تشتد شوكة الأمير عبد القادر وتصبح قوته تنافس القوة الفرنسية. لذا فهو يطالب من حكومته والمسؤولين فيها بالقضاء على الأمير عبد القادر وضرب المصادر الممولة له، حتى لا تفلت الأمور من يد فرنسا ".(معتوق جمال، 2023، ص121)

نلاحظ أن توكفيل كان يكن كراهية شديدة للأمير عبد القادر وجدّ متخوف منه ومن قوته، لأنه يعرف جيدا مكانته والكاريزما التي يتمتع بها بين مختلف القبائل الجزائرية، ولهذا فهو يرى بأن لا تتم الهيمنة الشاملة والكاملة على الجزائر من طرف فرنسا إلا إذا قضت على الأمير عبد القادر رمز المقاومة الجزائرية.

بعد هذا ينتقل لعرض شروط الهيمنة فيقول:"إن أول شرط من شروط قوة النفوذ بل ومن شروط الوجود لمثل هذا الأمر، هو أن يكون له جيش أمين ومطاع، جيش لا يرتبط بالضرورة بالجيش الذي يمكن أن تحشده له القبائل بصفة عرضية، فمثل هذا الجيش قد لا يقوى على قمع ثورة عارمة ولكنه يستطيع على الأقل أن يواجه المقاومات والثورات التي قد تندلع ضده كل يوم. لقد تمكن عبد القادر أن ينشىء هذا الجيش لنفسه، بل إنه قد فعل أكثر من ذلك". (علي زيكي، 2016، ص185)

نستنتج من وراء تصريحات توكفيل أن الهيمنة على الجزائر تمر عن طريق الأمير عبد القادر، الذي في نظره أصبح يشكل التهديد الحقيقي للوجود الفرنسي في الجزائر لقد استطاع حسبه الأمير عبد القادر أن يؤسس جيشا لم تعهد عليه الجزائر من قبل، يتميز بالطاعة له والصبر على الشدائد وقوة مواجهة الخصم، وبالتالي الهيمنة تقتضي القضاء على كل من الأمير وقواتها، ولن يتأتى هذا إلا بزرع الفتنة والكراهية بين القبائل العربية والأمير عبد القادر، وكذلك الكراهية والعداوة بين العرب والبربر. كما ألح مرارا في رسائله هذه على تجفيف مصادر الدعم للأمير وضرب بيد من حديد كل القبائل التي تتعاون معه، والقضاء على الأمير عبد القادر، يمر حسب توكفيل عن طريق الانتقام من العشائر المساندة له.

9- العمل على حماية الخونة والمتعاملين مع فرنسا :

لقد تفطن منذ البداية أو الوهلة الأولى هذا المفكر بأن نجاح الاحتلال يكمن في زرع في الجسم الجزائري مرض عسير وعويص اسمه الخيانة ولهذا نجده قد طلب من حكومته تشجيع ضعفاء النفوس من الجزائريين والفقراء البؤساء على التعامل معها مقابل الحماية والمال-الإغراءات- ولهذا نجد يطلب من السلطات الاستعمارية بحماية الخونة والمتعاملين مع فرنسا على حساب مصالح أمتهم.

وعليه فيقول : "كذلك يجب الإقرار بأن ما هو كفيل بتوفير الحماية الناجحة لحلفائنا لا يكمن في استقدام جيش كبير ومن مسافة بعيدة لمناصرتهم في محاربة العدو المشترك، بل يكمن في إمكانية الاستنجاد السريع والدائم بنا كلما اقترب منهم عبد القادر، يمكن القول إذن-كأطروحة كبرى-إن إنشاء أعداد وافرة من الوحدات المسلحة الصغيرة والمتحركة باستمرار حول المراكز الثابتة أجدى من تجنيد جيوش ضخمة تتحرك من بعيد وعلى فترات متباعدة لتقطع مسافات شاسعة من هذا البلد الفسيح الأرجاء. فحيثما أمكن لكم إقامة مجموعات عسكرية قادرة عند الحاجة على الانطلاق واجتياز البلد يجب القيام به، فهذه هي القاعدة حسب الرأي". (علي زيكي، 2016، ص198)

ومن توصياته الإجرامية، نذكر ما كتب:"لكن ولإقامة مثل هذه المجموعات العسكرية وتزويدها بالعدة والعدد، فلابد من شن حملات عنيفة بين الحين والآخر، وأقول كذلك بأن هذه الحملات الكبيرة تبدو ضرورية أمثر فأكثر، وهذا:

1- حتى نبين باستمرار للعرب ولجنودنا، أنه لاتوجد في البلاد من الحواجز القادرة على وقف زحفنا.
2- حتى نهدم كل ما هو شبيه بالتجمع السكاني الدائم، أو بتعبير آخر ما يشبه المدن، وأظن أنه من الأهمية بمكان الحيلولة دون بقاء أو إقامة أي مدينة ضمن ممتلكات عبد القادر" (علي زيكي، 2016، ص198)

لقد تناول العالم والسياسي ألكسيس في رسائل عن الجزائر ومختلف كتاباته عن المستعمرة العديد من القضايا والمواضيع الدقيقة، مثل: مسألة الإسلام والتدين في الجزائر وكان موقفه اتجاه الإسلام موقفا معاديا وأكثر عنصرية شبيها بموقف الكاتب الأديب الفرنسي شاتوبريان صاحب كتاب"عبقرية المسيحية Génie du Christianisme "الذي ألفه سنة (1802) و Itinéraire de paris à Jérusalem(1811)و.....Mémoire d’autre-Tombe (1872) الخ والذي كن أشد عداء للعرب والإسلام. فقد تعرف توكفيل من خلال قراءته للقرآن على الديانة الإسلامية وكتب صفحات كلفتا حقد وتهجم على الإسلام والرسول الأعظم، كما لم يتوقف عند هذا الحد بل شكك في الأمة الجزائرية وخاصة كتاباته العدوانية عن بدوى الجزائر الذين كان يسميهم بـ"الأهالي."

زيادة على هذه المواضيع، فقد كان من كبار المناصرين والمنظرين لسياسة فرق تسد التي وضعها صديقه المارشال بيجو حتى يضرب كل من العرب والبربر ويمزق النسيج الاجتماعي الجزائري، وهي المعادلة التي راهنت عليها كثيرا ولا تزال فرنسا وأعداء هذا الوطن.

من جهة أخرى كان يتميز بالمواقف والآراء المتناقضة حيث نجده يطلب بسحق وحرق كل أشكال المقاومة، إلا أنه في أماكن أخرى من أعماله نجده يطالب بعدم الاعتداء على الأوقاف والممتلكات الخاصة. كما وجدناه أيضا يفند الفكرة القائلة بأن فرنسا عندما دخلت إلى الجزائر، لم تجد سوى الأمية والجهل والتخلف، بل قال بأن أغلبية السكان كانوا متعلمين يتقنون الكتابة والقراءة وأن مؤسسات التعليم من زوايا، كتاتيب ومساجد كانت منتشرة في كل بقاع الجزائر.

هذه بعض الآراء التي رأينا أنه من الضروري أن نقدمها في هذا العمل، حتى يتسنى للطلبة والباحثين الوقوف على حقيقة هذا المفكر الملقب بأب الديمقراطية.

10- الخاتمة :

بعد عرضنا هذ لبعض الأراء والمواقف الخاصة بتوكفيل حول استعمار الجزائر من طرف فرنسا، تبين لنا أن هذا العالم والسياسي المحنك الذي تقلد العديد من المناصب ومنها وزيرا للخارجية الفرنسية، كان من أشد المدافعين على المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر . بل كان من المنظرين لهذا المشروع.

لقد قدم العديد من التوصيات العملية Conseils Opérationnels حول كيفية الهيمنة على الجزائر والتعامل مع السكان الأصليين.

رغم كذلك كونه قطبا من أقطاب الديمقراطية إلا أنه كان أكبر معاديا للشعوب المستضعفة، خاصة الجزائريين، الذين كان برى أنهم مجرد همجيين برابرة، وأن الوجود الفرنسي في هذا البلد يندرج في إطار مسؤولية ومهمة مقدسة وهي نشر الحضارة الأوروبية، كما روج لها جل المفكرين، والأدباء والفنانين الفرنسيين، من أمثال فيكتور هيجو، أرثورغوبينو A.Gobineau غوسطاف لبون Gustave Le Bon، وغيرهم من المفكرين ورجال الفن والأدب.

وعليه نقول بأن توكفيل كان من أنشط الإيديولوجيين الكولونياليين بل مسؤولا على العديد من المجازر والمآسات التي ارتكبت في الجزائر والتي بررها ودافع على جلديها.

11- قائمة المراجع

1-أنيا لومبا .تر: باسل المسالمة ، الكولونيالية وما بعدها ،دمشق ،دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر ، 2013 .

2-علي أسعد وطفة و علي جاسم الشهاب، علم الاجتماع المدرسي، بنوية الظاهرة المدرسية ووظيفتها الاجتماعية، لبنان ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2004 .

3-علي أسعد وطفة، علم الاجتماع التربوي، سوريا ،منشورات جامعة دمشق، 1992 .

4- إي أفانزي . تر: عبد الله عبد الدايم ، الجمود والتجديد في التربية المدرسية، بيروت ، دار العلم للملايين، بدون تاريخ .

5- Emile Durkheim Education et sociologie, paris , éd.p.v.f , 1989

6- توم بوتومور.تر: جورج جكا ، النخبة والمجتمع، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1988.

7- علي أسعد وطفة، مفهوم النخبة: مقاربة بنائية، غرناطة ، اسبانيا ، مركز نقد وتنوير للدراسات الإنسانية.

8- نديم بيطار، المثقفون والثورة : سقوط الأنتلجنسيا العربية، بيروت، لبنان ، بيسان للنشر 2002،

9- هارفي سي مانسفيلد توكفيل . تر: مصطفى محمد فؤاد ، مقدمة قصيرة جدا، القاهرة، مصر ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2016

10- Olivier le cour Grand maison : "les impasses du débat sur la torture en Algérie.Quand Tocqueville légitimait les boucheries" le Monde Diplomatique, juin 2001.

11- Alix Héricord (11 janvier 2010) , Libéral Versus colonial, sortir de la contradiction ? pour une étude positive de la proposition

tocquevillienne d'une colonisation naturelle labyrinthe ,mis en ligne le 11 janvier 2010 consulté 10/02/2024.

12- لينا كنوش (الجمعة 6 تموز 2018) ، ليبيرالية توكفيل في الجزائر، نزعة لهيمنة إستعمارية مقابلة مع أوليفية لوكور غرانميزون ، تاريخ التصفح 2020/09/06.

13- جمال معتوق، توكفيل والتنظير للمشروع الكولونيالي الفرنسي في الجزائر، الجزائر، دار الكتاب الحديث، ، 2023 .

14- علي زيكي ، كتابات توكفيل عن الجزائر 1837-1847 (توكفيل بين الديمقراطية والإستبداد)، دار الجائزة للنشر والطباعة والتوزيع، 2016 .